اختلاف القراءات القرآنية وأثرها في تنوع الدلالة والأسلوب

أ – جرادي يعرب

قسم الأدب العربي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة محمد خيضر بسكرة

تعتبر دراسة القراءات القرآنية من الأهمية بما كان للبحث اللساني المعاصر،بما توفره للباحث اللساني من مدونة لغوية حية،والسبب في حياتها،أنها ثابتة من جهة السند،نزل بها جبريل وحيا على رسول الله–صلى الله عليه وسلم– ،بما يوافق لهجات العرب ولغاتها،فكانت عصر احتجاج بنفسها،وإن انتهى هذا العصر في الواقع اللغوي العربي.

وكما أنها ستخدم النحوي الذي يريد أن يتحقق أو يعيد النظر في القواعد النحوية،التي تحكم المستوى التركيبي للغة،فإنها–بلا شك–ستخدم الباحث الدلالي،والأسلوبي،وذلك بتجريد البنى اللسانية التي تحدث فيها تنوعات في الدلالة،أو الأسلوب،ثم ملاحظة كيفية إشارة الدوال إلى مدلولاتها،ثم تصنيفها في أجناس تجمعها روابط مشتركة،لنحصل في النهاية على ظواهر أسلوبية نستطيع إسقاطها على النصوص الأدبية،وتكون لنا وسيلة لتحليلها.

والجدير بالذكر في هذا المقام،أن هذا التنوع الأسلوبي في القرآن الكريم،كما أنه يتم في المستوى الأفقي،فإنه يكون كذلك في المستوى العمودي،أي أنه يكون موجودا في الآية الواحدة،في التلاحق الزمني للنظم،ثم يتوقف الزمن،لتقف أمام مجموعة من القراءات،التي تشكل نظما استبداليا،مع النظم الزمني السابق،وكلها مؤدية للمعنى،دالة عليه،من غير تناقض ولا تضاد،بل إنها تلقي بجماليات صوتية وأسلوبية متنوعة.

وقد كانت الظاهرة الأسلوبية المنتشرة عند الاختلاف في القراءات القرآنية هي ظاهرة الالتفات،أو العدول،أو التلوين،وكلها أسماء لمسمى واحد،هو الانحراف كما نعرفها في البحث الأسلوبي المعاصر،وهذه المصطلحات قد عالجها الفكر البلاغي العربي،تنظيرا،والفكر النقدي والتفسيري تطبيقا.

وقد لاحظ اللسانيون العرب؛منذ العهود الأولى للبحث اللساني؛هذه الظاهرة؛وأولوها اهتمامهم،وقد عد بعض الباحثين الأصمعي أول من ذكر المصطلح[1]، وذلك عندما سأل محمدا بن يحيى الصولي:أتعرف التفاتات جرير؟فأجابه:لا،فأنشد الأصمعي عن جرير قولَه:

أَتَنْسَى إِذْ تُوَدِّعُنَا سُلَيْمَى بِعُودِ بِشَامَةٍ[2]سُقِيَ البِشَامُ

وقال الأصمعي–معلقا–:"ألا تراه مقبلا على شعره،ثم التفت إلى البشام فدعا له."[3]

و هذا النوع من الكلام يحدث أثرا بلاغيا ؛إذ يرى الزمخشري أن العرب تنتقل في كلامها من أسلوب إلى أسلوب وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ؛ ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب ؛ كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ؛وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد [4].

وهذه الملاحظة من الأصمعي دعت بعض المنظرين لهذه الظاهرة البلاغية أن يعرفوا الالتفات بأنه:

"العدول من أسلوب إلى أسلوب "[5] أو :"العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول." [6]،وهذا التعريف للالتفات مُوسِّع له ؛ليشمل كل انتقال في كافة مستويات اللغة؛لأن هناك من حصره في أضيق أنواعه فجعله–كما قالوا– :"التعبير عن معنى بأسلوب التكلم أو الخطاب أو الغيبة وذلك بالتعبير عن المعنى بأسلوب آخر منها"[7] أو:"الانتقال من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى صاحبه".[8]

و قد تداول أئمة الباحثين في القراءات القرآنية الالتفات بصنفيه المُوسَّع والمُضيَّق ؛ فيذكر الفراء في معانيه أشهر شاهد في هذا الباب وهو يوجه قوله تعالى:"يرونهم مثليهم رأي العين"[آل عمران:13] إذ يقول:"ومن قرأ " ترونهم"

ذهب إلى اليهود ؛ لأنه خاطبهم ومن قال :"يرونهم" فعلــى ذلــك.كمــا قــال :"حتــى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة"."[9]

و عده ابن جني من شجاعة العربية ؛ وذلك عند حديثه عــن قولــه تعــالى :"واتقــوا يوما تُرْجَعُونَ فيه إلى الله."[البقرة:281] ،فقد قُــرئ شــاذا :"يُرْجَعُــونَ" باليــاء ، قــال ابن جني:« ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة كقولــه تعــالى :"حتــى إذا كنــتم فــي الفلــك وجرين بهم بريح طيبة "[يونس:22]؛ غير أنــه تصــور فيــه معنــى مطروقــا هنــا فحمل الكلام عليه،وذلك كأنه قال:(واتقوا يوما يرجــع فيــه لبشــر إلــى الله)،فأضــمر على ذلك فقال :"ترجعون فيه إلى الله"..وقد إفردنــا لــه بابــا فــي كتابنــا الخصــائص ووسَمْناه بشجاعة العربية.» [10]

وقد قسمه ابن النــاظم ســتة أقســام وهــي المختصــة بــالتكلم والخطــاب والغيبــة ؛ والذي سار عليه قسم من البلاغيين –كما رأينا– ؛ وهي:

الأول: من الحكاية إلى الخطاب .

الثاني: نقل الغيبة إلى الحكاية.

الثالث: نقل الخطاب إلى الحكاية.

الرابع: نقل الغيبة إلى الخطاب.

الخامس: نقل الحكاية إلى الغيبة.

السادس: نقل الخطاب إلى الغيبة.[11]

وهذه أمثلة عن الالتفات أو العدول في القــراءات القرآنيــة بــين روايتــين منتشــرتين فــي العــالم الإســلامي،هما روايــة ورش عــن نــافع ،التــي نقــرؤ بهــا نحــن المغاربة،ورواية حفص عن عاصم التي يقرؤ بها المشــارقة.وســنبين أثرهــا الــدلالي في المستويات اللسانية المختلفة:

1-المستوى المعجمي:

في قوله تعالى:﴿🕮❒❒⬀ ☜⌧🔔🕮⊛🕮⅄⓿☞❽ ✌♦❷▪ ⬉♦✍■❼🗐
🔔⬩❷⬀③⬆♦❒🖮 ❒◆♎☞❻" ❀⬩🔔❒⊘③♦❒➘ ⬉♦✍■❼🗐
⬉⬉❹⬆❒⅄♑♑⍓⌧🕮 🔔⬩🕮✌♦ 🕮❒❄❋❼🗐 ③⬉⬩⬄❻⬲🕘

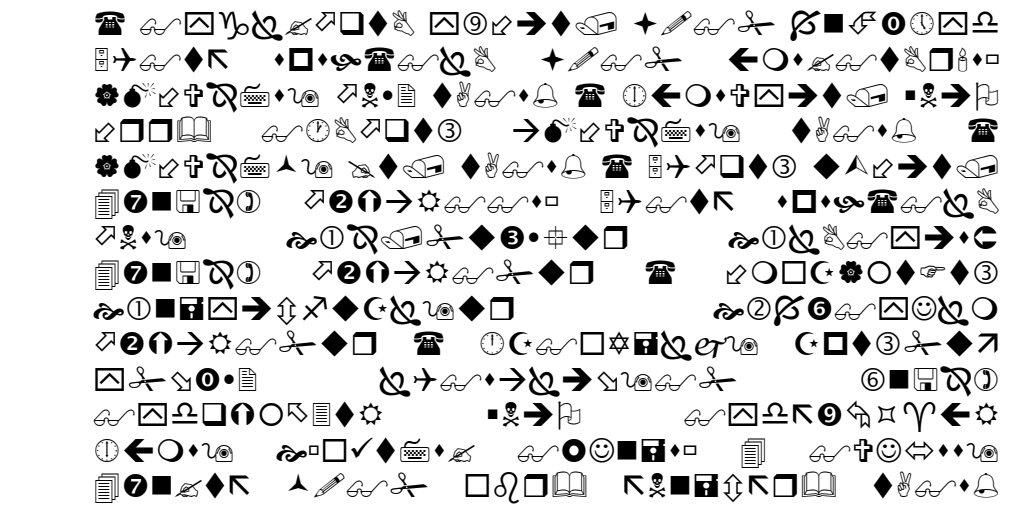
[البقرة:259]

روى ورش عن نافع : ننشرها بالراء المهملة[12]،ووافقه أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ؛ووافقهم ابن محيصن و اليزيدي والحسن.

روى حفص عن عاصم : ننشزها بالزاي ،ووافقه ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف .[13]

أثره في المعنى :

في رواية ورش: ننشرها أي نحييها ؛فيكون المعنى: أنظر إلى عظام حمارك التي قد ابيضت من مرور الزمان عليها كيف نحييها.[14]

في رواية حفص:ننشزها ؛من النشز وهو الارتفاع أي:يرتفع بعضها على بعض ونركبها عند إرادة الخلق .[15]

تحليل ومناقشة :

1-يلاحظ –ابتداء– أن هذا الاختلاف له علاقة وطيدة بالسياق ؛ الذي كان السؤالَ النابع من الحيرة والدهشة عن كيفية إحياء الله للموتى،إذ قال نبي الله عزير:﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها ﴾ ،ورواية ورش جاءت بمعنى إحياء العظام[16] ،ورواية حفص جاءت بمعنى ارتفاع بعضها فوق بعض[17] ؛فبينت

كيفية الإحياء ،ولهذا تكاملت القراءتان في تأدية المعنى؛وكانت الثانية موضحة للأولى، وفي هذا يقول أبو حيان الأندلسي:

« ومعنى ننشزها بالزاي : نحركها ونرفع بعضها إلى بعض ،وإنما النشوز الارتفاع قليلا قليلا ،فكأنه وقف على نبات العظام الرفات (عند إرادة الاختراع) ؛ وانظر إلى استعمال العرب تجده ما ذكرت لك من نشز ناب البعير (أي نبت) ،والنشز من الأرض على التشبيه من ذلك..﴿وانشزوا فانشزوا﴾ أي ارتفعوا شيئا فشيئا كنشوز الناب ؛فبذلك تكون التوسعة.»[18]

2-"النون والشين والراء" تأتي في المعجم دالة على فتح الشيء وتشعبه، و"النون والشين والزاي" تأتي دالة على ارتفاع وعلو[19]؛ فزاد هذا في إيضاح كيفية الإحياء؛ إذا ما قارنا المعنى المعجمي للمادتين بالمشاهدات الحديثة لعملية الإحياء الخلوية؛إذ تنفتح الخلية الواحدة إلى خليتين ، ثم كل خلية تنفتح إلى اثنتين ،وهكذا دواليك في انفتاح وتشعب متواصل حتى يتكون العضو الحي عند الجنين ؛ وهكذا أعضاؤه كلها ، ثم يأتي بعد عملية النشر النشز وهو -كما نقله أبو حيان - الارتفاع قليلا،وكأن عملية الإحياء والتنشئة كلها إنشار وإنشاز من الباري سبحانه وتعالى لمخلوقاته .

3-ومن لطائف الموافقات -التي تذكر في هذا المقام - أن حديثا ذكر في" اللسان"[20] عند شرح معنى النشر يقول فيه" النبي-صلى الله عليه وسلم- :« لا رضاع إلا ما أنشر اللحم وأنبت العظم.»؛أي شده وقواه من الإنشار :الإحياء ؛قال ابن الأثير : ويروى بالزاي ."[21] ،فتكون رواية الحديث "أنشر اللحم "بالراء بمعنى : نموه وزيادته ؛ أي انفتاح متشعب عند الإحياء ، ويكون إنبات العظم هو الإنشاز ،أما رواية الحديث بالزاي فبمعنى تكدس اللحم فوق بعضه البعض بتفتله ويكون إنبات العظم من باب ذكر المرادف ،فنلاحظ من الحديث كيف أنه وافق الآية لفظا ومعنى ،وحققت قراءاتها المراد بإيجاز وإعجاز.

2-المستوى الصرفي:

وسنكتفي في هذا المستوى بذكر نوع واحد،وهو العدول من اسم الفاعل إلى اسم المفعول؛ومثاله قوله تعالى:﴿ ﴾

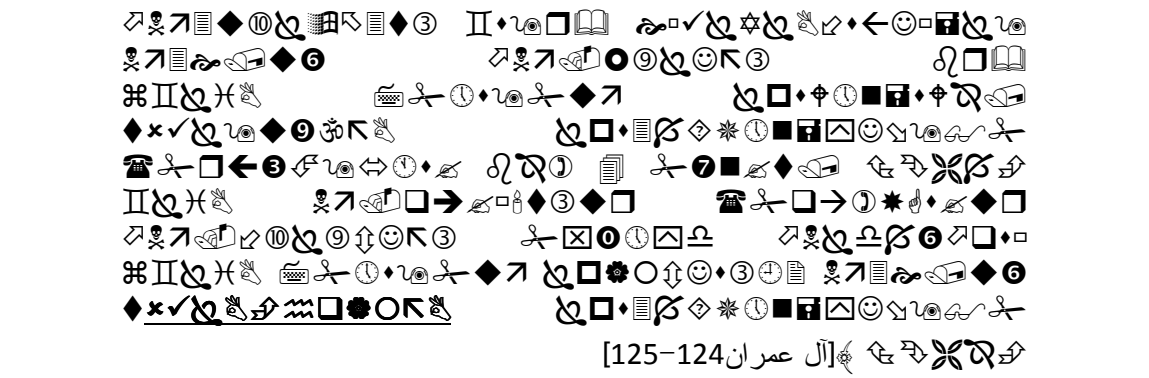

[آل عمران124–125]

المعنى عند ورش عن نافع:

قرأها بكسر الواو[22] على أنها اسم فاعل من سَوَّمَ ، أو مسومين أنفسهم ؛ أي الملائكة ، فأخبر عنهم أنهم سوموا الخيل ، والسَّوْمَةُ العلامة على الشيء بلون يخالف لونه ليعرف بها ، ويقوي ذلك أن النبي–صلى الله عليه وسلم– قال يوم بدر:"سَوِّمُوا فإن الملائكة قد سومت."

فأضاف الفعل إلى الملائكة، وقد قيل إنهم كانوا بعمائم صفر مرخيات على أكتافهم.[23]

قال أبو منصور الأزهري :"من قرأ مسومين بالكسر فالمعنى: معلمين بالسومة،وهي العلامة في الحرب."[24]

المعنى عند حفص عن عاصم:

قرأها بالفتح[25] على أنها اسم مفعول ،و ويكون الفاعل هو الله تعالى، أوعلى معنى أن غيرهم من الملائكة سَوَّمهُم.[26]

3–المستوى النحوي:

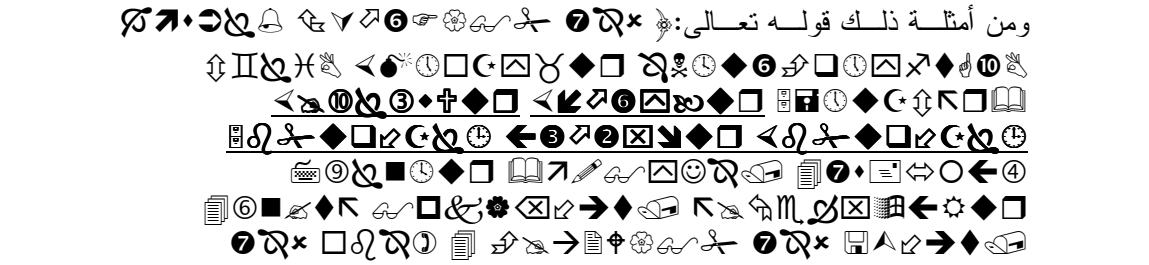

❶♦◷♐♑♋⓵♒◷♐♒ ⏍☐⓷♦⓵☼ ♑♑♏♑⓵♦☐♢✈

⓷♦➔⇗⓵⇙🖫➔☐♍♒ ⇗⇗⇖ ﴾[الرعد:4].

إذ **قرأها ورش**:"وزرعٍ ونخيلٍ صنوانٍ وغيرِ صنوانٍ"؛

و**قرأها حفص**:"وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ"[27]؛

فالمعنى عند ورش:الذي جعلها مجرورة بالعطف على "أعنابٍ"؛أن الجنات من الزرع.

والمعنى عند حفص:الذي جعلها مرفوعة بالعطف على"جناتٌ" بتقدير: وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ مجتمعةٌ من أصل واحد،وغير صنوان غير مجتمعة من أصل واحد.[28]

4-المستوى الدلالي:

وسنكتفي هنا بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب لضيق المقام عن ذكر كل أنواع الالتفات الصغير

قرأها ورش:"يعملون"بالياء؛عائدا على"يردون"، وعلى قوله تعالى :أولئك الذين" و"اشتروا"و"عنهم"و"ولاهم"في الآية التي بعدها.[29] فلما كان بلفظ الغيبة؛حُمل صدر الكلام عليه.

وقرأها حفص:"تعملون"[30]؛عائدا على ما تقدم من الخطاب في قوله تعالى:"أخذنا ميثاقكم"[31]

وفي قوله تعالى:"أنتم"و"تقتلون"و"تُخرجون"و"تظاهرون"و"يأتوكم أسارى تفادوهم" و"عليكم"و"أفتؤمنون"و"تكفرون"و"منكم"،فلما كان كله بلفظ الخطاب حُمل عليه.[32]

وفي ختام هذه الدراسة؛ أرجوا أن أكون قد أثرت انتباه البحثين إلى أهمية البحث اللساني في القرآن الكريم بقراءاته القرآنية،وإلى عراقة البحث في الظواهر الأسلوبية التي تبحث اليوم بمصطلحات أخرى، نستطيع الاستغناء عنها،لنتداول ما أنتجته الفكر العربي ،من رحم الحياة الثقافية العربية،التي كانت تستفيد من الآخر،بعد أن تكون قد صاغته في قالبها.

هوامش الدراسة:

[1] –طه رضوان طه،تلوين الخطاب في القرآن الكريم،دراسة في علم الأسلوب وتحليل النص،(حصل بها المؤلف على درجة الدكتوراه،تحت إشراف:عبد الراجحي،و محمد بدري عبد الجليل،،دار الصحابة للتراث بطنطا،مصر،ط1:1428 هـ_2007م.ص23.

[2] – البشام:شجر طيب الطعم والرائحة؛يستاك به،ينظر:اللسان،مادة:بشم.

[3]– ينظر: أبو هلال العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ،الصناعتين،الكتابة والشعر،تح:د/مفيد قميحة، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط2،1404هـ_1984م ،ص438.

[4] – الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،ضبطه وصححه ورتبه مصطفى حسين أحمد،دار الريان للتراث،القاهرة،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط3، 1407هـ_1987م.،10/1.

[5] – الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن،تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،ط3،دار الفكر،بيروت،لبنان،1400هـ_1980م،361/3.

[6] – طه رضوان طه،تلوين الخطاب في القرآن الكريم، 26.

[7] – القزويني:جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة،مختصر تلخيص المفتاح، تح: رحاب عكاوي ،دار الفكر العربي ،بيروت،لبنان،2000م،ص157.

[8] –الهاشمي السيد أحمد:جواهر البلاغة،ضبط وتدقيق وتوثيق:يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت،لبنان،1424هـ_2002م.ص 239.

[9] –الفراء:أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله (ت207هـ)،معاني القرآن،تح و تع وحواشي وفهارس:إبراهيم شمس الدين،منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية_لبنان،ط1،1423هـ_2002م. 195/1 .

[10] –ابن جني:أبو الفتح عثمان،الخصائص،تح:محمد علي النجار،دار الهدى،بيروت،لبنان. 360/1–441والمحتسب في بيان وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها،تح:علي النجدي ناصف وزميليه، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية1389هـ. 145/1

[11] –ابن الناظم،المصباح المعين في المعاني و البيان والبديع،مكتبة الآداب ،مصر،دت،ص30.

[12] –اتبعنا وصف الحرف على طريقة المتقدمين ؛ لنتأكد أنه لم يقع تصحيف أو تحريف.

[13] – ابن الجزري:شمس الدين أبي الخير محمد بن علي الدمشقي الشافعي.النشر في القراءات العشر،قدم له:علي محمد الضباع، خرج آياته:زكريا عميرات، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1،1418هـ_1998م،174/2

[14] – الأزهري:أبو منصور محمد بن أحمد(ت370ه)،كتاب معاني القراءات تح و تع:أحمد فريد المزيدي،قدم له وقرضه:د/فتحي عبد الرحمن حجازي،منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية،لبنان،ط1،1420ه_1999م،ص86،والراز ي :فخر الدين، التفسير الكبير،المطبعة البهية، مصر.دت7،/36،والقرطبي: أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري،الجامع لأحكام القرآن،1407ه–1987م. 295/3.

[15] –الأزهري،معاني القراءات، 86.

[16]–ابن منظور:جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ،لسان العرب،دارصادر بيروت،لبنان، ط1، 2000م. 187/6.

[17]– مرن: 185/6.

[18] –أبو حيان الأندلسي،تفسير البحر المحيط،دار الفكر،ط2،1983م،305/2.

[19] – ابن فارس:أبو الحسين أحمد،معجم مقاييس اللغة،تح:عبد السلام هارون ،دار الكتب العلمية،لبنان،430/5،و الفيروزأبادي:ينظر القاموس المحيط،تح:مكتب تحقيق التراث،مؤسسة الرسالة،ط2،1407ه_1987م. 678،679،و السجستاني:أبو داوود،نزهة القلوب في شرح غريب القرآن،دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان،ص201.

[20] –185/6.

[21] – ابن الأثير: أبو السعادات المبارك مجد الدين بن محمد الجزري ،النهاية في غريب الحديث والأثر تح:طاهر الزواوي ومحمد الطناجي،نشر المكتبة الإسلامية،عمان،الأردن. في غريب الحديث والأثر":مادة نشز.

[22] –ابن الجزري،النشر،182/2.

[23] -قمحاوي محمد الصادق،طلائع البشر في توجيه القراءات العشر،عالم الكتب،ط1،1424ه-2003م،بيروت،لبنان،ص45.

[24] –الأزهري،معاني القراءات،109–110.

[25] –ابن الجزري،النشر،182/2.

[26]–مر ن،ص ن.

[27] –ابن الجزري،النشر،223/2.

[28] –ينظر:القيسي:أبو محمد مكي بن أبي طالب،الكشف عن وجوه القراءات السبع ،تح:د/محيي الدين رمضان،مؤسسة الرسالة،بيروت، ط2،1401ه_1981م.19/2 وأبو حيان،البحر:36/5.

[29] –البقرة:86

[30] –ابن الجزري،النشر:163/2.

[31] –البقرة:84.

[32] –ينظر:القيسي،الكشف:252/2–253،وأبو حيان،البحر:294/1.